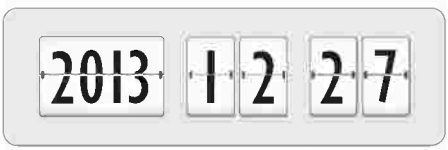

تابعت هيلاري كلامها في جلستها التالية قائلة: كانت المعركة البرلمانية التي لاتزال تمرضني إلى الأعماق حول الضمان الصحي القومي، كما تعرفين عينني بل رئيسة لفريق عمل دراسة الضمان الصحي، واقترح خطة من شأنها تغطية الجميع؛ بحسب اقتراحنا كان الناس سينتسبون إلى تحالف في كل ولاية للتعاقد مع شركات تأمين كانت ستعرض سياسات مختلفة.

عملت ليل نهار، جنبًا إلى جنب مع فريق عمل مؤلف من خمس مئة شخص، لإعداد أفضل خطة صحية تغطي الجميع في الولايات المتحدة مقابل ثمن يستطيعون دفعه، أخيرًا وضعنا برنامجًا أسعدني، في الحقيقة طرت فرحًا بالبرنامج، لكن فرحتي لم تدم طويلًا؛ لم يستغرق انتقالي من الشعور بالنشاط والخفة إلى الغرق في الكآبة سوى عام واحد، هل وافق الكونغرس على خطتنا الصحية؟ هل البابا يهودي؟

عبر الأجيال ظل الديمقراطيون يحاولون تمرير مثل هذا القانون، فقراء كثيرون لم يكونوا مؤمنين وعاجزين عن توفير الرعاية المناسبة لصحتهم، بل كان بعضهم يقضي بسبب ذلك، من خلال وضعه بصمته الشخصية على إصلاح الرعاية الصحية، زوَّد بل الجمهوريين بحافز هزيمته (هزيمة مشروع

الإصلاح)، وإذلاله بدلًا من الإقدام على القبول بنوع من المساومة والحل الوسط، لم يكن- بالتأكيد- ما تعرض للهزيمة هو مشروعنا وحسب؛ فسائر اقتراحات إصلاح الرعاية الصحية الأخرى؛ اقتراحات كوبر، وموينيهان، وميتشل، وتشايف، وغراندي، وهي غيض من فيض كانت أيضًا ضحية عناد الكونغرس.

بدلًا من الاهتمام بصحة الملايين من الأمريكيين، بقيت المعارضة متركزة على ما يمكن أن يخسره أولئك المتمتعون بالعافية، شركات التأمين عارضت خطتنا، وكل جيل من الجمهوريين يتولى مهمة التصدي لتمرير الضمان الصحي القومي على نحو أشرس من الجيل الذي سبقه.

أنا محطمة القلب لأن جهدنا كله، مدعومًا بنوايانا الطيبة الصادقة، ذهب أدراج الرياح، وحتى اليوم فإن الديمقراطيين أقروا الرعاية الصحية رغم بقاء الجمهوريين على معارضتهم، كنت شديدة الرغبة في تمكين رئاسة بل من ترسيخ ما فعلناه خدمة لشعبنا، ولكن ما كان من شأنه أن يشكل كبرى مساهماتنا تعرض للرمي في المجاري الصحية، وبحسب ما أرى فإن إخفاق اقتراحنا الخاص بإصلاح الرعاية الصحية سيدخل التاريخ بوصفه الفرصة السياسية الضائعة الأكبر في القرن العشرين، إنها قصة مساومات مرفوضة، صفقات غير مستكملة، وأعضاء من الحزبين كلهم مخفقون في دعم اقتراحات تولوا هم أنفسهم رعايتها على نحو مشترك.

سألتها: هل تعلمت شيئًا من هذه الهزيمة الكبرى في مجال الإصلاح الصحي؟

فكرت لحظة ثم قالت: ارتكبنا خطأين اثنين؛ حاولنا فعل أكثر مما ينبغي دفعة واحدة، وبالغنا في المماطلة والانتظار، وكانت النتيجة أننا لم نحقق شيئًا، ولو تعين علي أن أعيد الكرة، لاضطررنا إلى التقليص بل وحتى إلى التماس مساومة الجمهوريين، فعلى أي سياسي أن يتقن فن المساومة، كما سبق للرئيس

فرانكلين دي روزفلت أن قال ذات مرة. لو كنت سأفعل ذلك الآن، لما ترددت إزاء الدخول في صفقة حل وسط، في نوع من المساومة؛ فخطر عدم القيام بأي عمل أكبر من أخطار المساومة. وفيما يخص البرنامج السياسي، مؤسف حقًّا أن الرعاية الصحية تعين عليها أن تخلي مكانها لأولويات أخرى، إبان المدة الانتقالية وعامه الأول في المنصب، ظلت معركة الميزانية مصدر تهديد لرئاسة بل، ولم يكن أمامه أي خيار سوى التركيز عليها.

فريق العمل وأنا انفعلنا حين هدد بل الكونغرس بنقض أي شيء من دون التغطية الشاملة. مثل آخرين من مؤيدي الإصلاح، أخفقنا في إدراك أننا كنا –بانفعالنا هذا– نخاطر بخسارة كل شيء، افترضنا بسذاجة استحالة تعرض التغييرات الإيجابية نحو الأفضل للخسران، ومما يدعو للأسف والندم، أننا ما لبثنا أن تعلمنا درس أن الإستراتيجية والسرعة مهمتان في السياسة. على الضفة الإيجابية، جاءت الأزمان المتغيرة ومعها إمكانات جديدة، حتى مع أوباما كير، أقدِّر أن الرعاية الصحية ستبقى في قلب السياسة الأمريكية لمُدد زمنية طويلة مقبلة.

ربما كان إخفاق مشروعنا الخاص بالرعاية الصحية الهزيمة الأسوأ في حياتي، حتى أسوأ من خسارتي للترشيح الرئاسي في عام 2008م، وقد ألحق الأذى بملايين الأمريكيين جنبًا إلى جنب مع التسبب بجرح عميق لي شخصيًّا. لن أتجاوزه أبدًا.